

الفصل السادس

سوء إدارة الديموقراطية

اضطرابات عام 1993م عمقت اعتماد سوبتشاك على بوتين، وثقته به، ووصفت صحيفة كوميرسانت بوتين بأنه «أقرب رجل إلى سوبتشاك كما كان الأمير مينشيكوف قريباً إلى بطرس الأكبر»، في إشارة إلى الرجل الذي كان آمراً لدى القيصر، ومحل ثقته، ومن المقربين منه، في القرن الثامن عشر، حتى نُفي إلى سيبيريا بعد وفاة بطرس¹. ويقول سوبتشاك عن بوتين إنه كان «شخصاً شجاعاً وحاسماً»²، من غير تصاميم أو خطط نحو سلطة سوبتشاك، أو حتى على موقعه، ونتيجة لذلك لم يمنح نائبه صلاحيات أكبر في إدارة المدينة ومجال الاستثمار الأجنبي وحسب، وإنما أيضاً في معاركه ضد منتقديه، وأعضاء النيابة العامة الذين بدؤوا التحقيقات في الشؤون المالية لسوبتشاك.

في خريف عام 1993م طلب سوبتشاك من بوتين إدارة الحملة الانتخابية البرلمانية لحزب (اختيار روسيا)، وهو الحزب الذي أسسه رئيس وزراء يلتسين يغور غايدار مرة بعد أخرى. وكان ذلك أمراً محيراً؛ لأن سوبتشاك قد أسس الكتلة الخاصة به، الحركة الروسية للإصلاح الديموقراطي- التي أخفقت إخفاً ذريعاً في الفوز بأي مقعد في انتخابات ديسمبر/ كانون الأول- ولكن بوتين لا يناقش في الأوامر أبداً؛ فقد وقف بحزم خلف سوبتشاك، إنه موال لرئيسه كما كان موالياً لرؤسائه في الـ(كي جي بي) من قبل، بحيث لا يرى فيهم نقاط الضعف، ومن ثم عمل بوتين بلا كلال، مع هاجس يراوده أحياناً فيعرضه لمشقة ومأساة قد تطول أولئك المقربين منه في المنزل.

في صباح يوم 23 أكتوبر/تشرين الأول 2003م، أوصل بوتين ابنته ماشا إلى المدرسة، ثم توجه إلى فندق أستوريا، حيث سيكلفه سوبتشاك بمهمة خاصة به، في حين بقيت ليودميلا في المنزل مع كاتيا المصابة بحمى، وكانت الساعة السابعة وقتها. ألحت كاتيا على والدتها للسماح لها بالذهاب إلى المدرسة كي تؤدي دورها في تجربة مسرحية (بروفة)، كانت تؤدي فيها دور سندريلا، وعلى الرغم من أن ليودميلا عرضت عليها كان لديها فكرة أفضل، فإنها أصرت³؛ فلديها سيارة تشيجولي جديدة، وهي- إن بدت متواضعة- السيارة الثانية للأسرة، وعلامة على تنامي الازدهار. قبل الظهر، وبينما كانت ليودميلا تقترب من الجسر فوق نهر النيفا، أسرعت سيارة أخرى متجاوزة الضوء الأحمر واصطدمت بتشيجولي؛ فغابت ليودميلا عن الوعي من أثر الصدمة، وعندما استيقظت ظنت أنها تستطيع قيادة السيارة، لكنها لم تستطع، أما كاتيا، التي كانت نائمة في المقعد الخلفي، فقد أصيبت بكدمات، ولم تتلق ضربات موجعة، ثم لم يحدث أي شيء مدة طويلة.

وصلت الشرطة، وتجمع المارة، ثم وصلت سيارة الإسعاف بعد خمس وأربعين دقيقة، فقد كانت الخدمات الأساسية في هذه الدولة متداعية. اتصلت امرأة، لم تعد تذكر ليودميلا اسمها أو رقمها، هاتفيًا بسيارة الإسعاف، وبالرقم الذي أملته عليها ليودميلا؛ فأجابت أمينة سر بوتين، مارينا ينتالتسيفا، ولكنها لم تكن تعرف ما يجب فعله، فانطلق مساعد بوتين الذي يتق به، إيجور سيشين، إلى موقع الحادث، وأخذ كاتيا إلى المكتب في سمولني، في حين ذهبت ينتالتسيفا للبحث عن بوتين. بعد أن وصلت سيارة الإسعاف أخيرًا، أخذت ليودميلا إلى (مستشفى 25 أكتوبر)، ولا يزال اسمه يحمل (على التقويم القديم) تاريخ الثورة البلشفية؛ تيمناً بها. تذكر ليودميلا في وقت لاحق ما حدث في المستشفى: «كان مستشفى فظيلاً، يعج بالناس الذين يحتضرون، وكان في الردهة منه محفات (عربات حمل المرضى) عليها جثث القتلى»، والأسوأ من ذلك أن الأطباء الذين عالجوها لم يلاحظوا أنه قد كسرت ثلاث فقرات في عمودها الفقري، وكسرت قاعدة جمجمتها، فخاط الجراحون

أذنها الممزقة، وتركت عارية بحالة رهيبة على الطاولة في غرف عمليات متجمدة شبه غائبة عن الوعي⁴.

في هذه الأثناء كان بوتين يلتقي في أستوريا مع ممثلي اللجنة التنفيذية للكابل التلفزيوني الأمريكي تيد تيرنر وجين فوندا وزوجته. وكانوا في بطرسبورغ لترتيب انطلاق الدورة الثالثة لألعاب النيات الحسنة، المنافسة الرياضية الدولية التي حلم تيرنر بتنظيمها بعد دورة الألعاب الأولمبية في موسكو عام 1980م، التي قاطعتها الولايات المتحدة ودول أخرى إثر الغزو السوفييتي لأفغانستان، ودورة الألعاب الأولمبية عام 1984م التي قاطعها الاتحاد السوفييتي وكثير من الدول التي تدور في فلكه؛ ردًا وانتقامًا لذلك.

أقيمت المباريات الأولى في موسكو عام 1986م، والثانية في سياتل في عام 1990م، وكان تيرنر يريد إعادتها إلى روسيا الجديدة في عام 1994م، وكان سوبتشاك حريصًا على تسليط الضوء على المدينة، حتى وإن لم يكن بمقدورها تحمُّل الاستثمارات اللازمة، وقد كان بوتين يعقد سلسلة من الاجتماعات مع الزائرين عندما وصلت سكرتيرته أخيرًا إلى الفندق.

توجه مباشرة إلى غرفة الطوارئ، وقال له كبير الجراحين هناك: «لا تقلق، هي ليست في خطر، سنضع لها جبيرة فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام».

سأله: «هل أنت متأكد؟».

أجاب الجراح: «بكل تأكيد».

ومن غير أن يرى زوجته، عاد بوتين إلى لقاءاته.

في هذه الأثناء، أخذت ينتالسييفا كاتيا إلى المستشفى، وجاءت بماشا من مدرستها، وطلب بوتين إلى ينتالسييفا قضاء ليلة معهم في المنزل الريفي العائلي، وطلب إليها أيضًا الاتصال بيوري شيفتشينكو، أحد الأطباء البارزين في الأكاديمية الطبية العسكرية في المدينة (الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للصحة).

حل المساء قبل أن تصل إلى شيفتشينكو، الذي أرسل على الفور طبيباً من عيادة الأكاديمية. تتذكر ليودميلا كيف استيقظت في غرفة العمليات وشعرت بيده الدافئة تمسك يدها؛ «رفع من معنوياتي، وعرفت أنه أنقذني». تدبر الطبيب ترتيب نقلها إلى المستشفى العسكري، وقد كشفت الصور الشعاعية عن إصابات بالعمود الفقري، وهي بذلك تحتاج إلى عملية جراحية طارئة. وبين اجتماعين في تلك الليلة، زارها بوتين لأول مرة، وقابل ينتالسييفا وطفليته في موقف السيارات، وأخبرها أنه من غير المرجح أن يعود إلى المنزل؛ لأنه من المقرر أن تستمر محادثاته مع تيد تيرنر في الليل. فأخذت الفتاتين إلى المنزل الريفي، وعندما لم تتمكن من العثور على مفتاح التدفئة، أجلست الطفلتين في سرير واحد وغطتهما بأغطية إضافية. كانت مستيقظة ترتعش عندما وصل بوتين إلى المنزل في الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم، وفي الساعة السابعة صباحاً غادر مرة أخرى⁵.

أصبحت ينتالسييفا مقربة من الأسرة، وبقيت مع الفتاتين إلى أن وصلت أمهما ليودميلا من كالينينجراد، وكانت قد اعتادت على صرامة بوتين، وسلوكه الهادئ، ودقته في التعامل مع رجال الأعمال في المدينة، وردده البارد حين قتل كلبه، لكن اليوم يبدو فاقداً لأعصابه، قالت: «لا أستطيع القول إنه حزن أو ارتبك، ولا أعرف حتى ما الذي يستولي عليه»، وأضافت: «المشكلة ليست هنا؛ كنت أشعر أنه يحاول الخروج فقط بخطة من رأسه». أمضت ليودميلا شهراً في الأكاديمية الطبية العسكرية، حيث اكتشفوا فيما بعد كسرًا في قاعدة الجمجمة، وبعد خروجها من المستشفى اضطرت إلى وضع دعامة عدة أشهر.

كانت ثقة بوتين بالذين عرفهم كبيرة، وكان جلهم من (أجهزة السلطة)، هؤلاء الأصدقاء أصبحوا يعرفون (بالحرس القديم) (siloviki)، وهي في أصلها من كلمة (قوة)؛ نظرًا لخلفياتهم العسكرية أو الأمنية. وكان يعرف أن هؤلاء الرجال هم الذين سيقفون إلى جانبه بتفان عند الأزمة، ولم يكن يثق بغيرهم تقريباً.

وبخصوص إصابات ليودميلا فقد اعتمد بوتين على إيجور سيتشين، ثم شيفتشينكو، ثم على صديقه الجديد في مصرف دريسدن، رجل أمن الدولة السابق (ستاسي) ماتياس وارنيغ، وهو من أهالي دريسدن الذي تولى ترتيب علاج ليودميلا، ودفع ثمن العلاج في عيادة بمدينة باد هومبورغ، في ألمانيا، فالعلاج الطبي، والرعاية الطبية المتردية أساساً في روسيا، لا تحقق الشفاء⁶، فضلاً عن أن بوتين كان يعجز عن تحمل نفقات العلاج في الخارج، وهو ما يدحض مزاعم منتقديه بأنه، أيضاً، كان يسعى لإثراء نفسه في إدارة سوبتشاك. ولكنه كان يوقن بالفهم الروسي الجوهري بأن المساعدة، سواء في أزمة أو في غيرها، تأتي من خلال الاتصالات، وتبادل الفضائل، فكان يتذكر دائماً أعمال الولاء كأعمال وارنيغ، لكنه لا يغفر الخيانات مطلقاً.

بعد أن حل يلتسين مجلس المدينة في أعقاب أزمة 1993م، بدت سلطة سوبتشاك في بطرسبورغ لا يمكن تعويضها، والمرسوم الذي كتبه ووقعه يلتسين، نقل السلطة على نحو كبير من المجلس إلى مكتب رئيس البلدية، لتصبح المدينة جاهزة لإجراء انتخابات مارس/آذار 1994م، وأسس المرسوم لإنشاء هيئة تشريعية جديدة مصغرة؛ فبدلاً من أربع مئة عضو، ضم المجلس التشريعي الجديد خمسين عضواً فقط.

من الناحية النظرية كان ذلك إعادة هيكلة ديموقراطية لفروع السلطة، لكن في الواقع عزز سوبتشاك من سيطرته على كل شؤون المدينة، وفي 16 مارس/آذار، قبل أربعة أيام من الانتخابات، أعاد هيكلة حكومة المدينة، جاعلاً من نفسه رئيساً للحكومة، وتخلص من اللجان التي كانت ترفع تقاريرها لنائب رئيس البلدية، وعزز من صلاحيات لجان أخرى، ورُفِعَ رؤساء أقوى اللجان الثلاث، الذين يشرفون على التمويل، والعلاقات الدولية، والعمليات، وأصبح فلاديمير بوتين أحد النواب الثلاثة لحكومة سوبتشاك الجديدة، وظل مسؤولاً عن الشؤون الاقتصادية الخارجية⁷.

كانت الانتخابات التشريعية مهزلة، وكتب مكتب سوبتشاك الأحكام دون أي مساهمة أو موافقة من أعضاء المجلس الذي كانت يعاد هيكلته، وعندما فتحت صناديق الاقتراع يوم 20 مارس/ آذار، لم تكلف الأغلبية الساحقة من الناس أنفسهم عناء التصويت، والمخاطرة بإلغاء النتائج؛ لأن القانون يتطلب الحد الأدنى من الإقبال 25 في المئة، وقد حقق الإقبال الحد الأدنى في نصف المناطق الخمسين فقط، وانضم خمسة وعشرون نائباً جديداً للجمعية، لكنها غير مكتملة النصاب، ولا يمكن أن تعمل قانونياً، ولم يبد على سوبتشاك الانزعاج من التحول في الأحداث، ولم يضع موعداً لجولة جديدة من الانتخابات لملء المقاعد المتبقية حتى أكتوبر/ تشرين الأول، وكان حتى ذلك الحين هو ونوابه يحكمون وفق ما يرونه مناسباً، دون رقابة السلطة التشريعية.

بعد خمس سنوات من تأسيس مجلس المدينة لأول مرة، تحوّل التعبير البهيج للإرادة الشعبية من خلال صناديق الاقتراع إلى الاشمئزاز مع العملية الديموقراطية. كانت الديموقراطية في روسيا قد تجذرت في التربة الجرداء، وأعيق نموها حقاً. وقد وُجّه كثير من اللوم إلى الدولة، لما وصل إليه الاقتصاد الروسي الجديد من حالة كارثية، والصعوبات التي واجهت الخصخصة، وتكديس الفاسدين للثروة، وارتفاع نسبة الجريمة التي جعلت بطرسبورغ سيئة السمعة كأنها مستنقع للعنف والجريمة المنظمة. وكانت المفارقة أن الرجل الذي قاد الكفاح من أجل الديموقراطية في بطرسبورغ تحمل كثيراً من اللوم. وبدأ ب كبير قلص من صلاحيات المجلس، فلم يكثرث الناخبون لذلك بمن سيعمل فيه. كان سوبتشاك خطيباً بارعاً ومديرًا رهيّباً، وأدى انشغاله بالسلطة، والهيبة الدولية، إلى أن يتجاهل المشكلات اليومية لمدينته، وقدرته على تعزيز الديموقراطية تعني- في رأيه- تعزيز الحكم الزئبقي له.

بعد وقت قصير من الانتخابات، أقال قائد شرطة المدينة، أركادي كراماريف، الذي تحدى قادة الانقلاب عام 1991م، وحمى سوبتشاك من الاعتقال، محملاً إياه سبب زيادة الجريمة في المدينة، وبعد أن عزز سيطرته على الشبكة التلفازية في المدينة، تأكد سوبتشاك

من أن تغطيته كانت رائعة، وأن خصومه لم يعد لهم وجود. بعد الفوز بحق استضافة دورة ألعاب النيات الحسنة، استخدم شرط الإقامة الذي كان يطبق في العهد السوفييتي، والذي أبطلته المحكمة الدستورية، لدفع العمال المهاجرين غير المرغوب فيهم للخروج من المدينة قبل افتتاح الألعاب في يوليو/تموز 1994م⁸.

بهذه الطريقة أصبحت ألعاب النيات الحسنة رمزها العمدة سوبتشاك: مشروعاً غير محتمل لدعم مكانة المدينة، تقوضه الوقائع القاسية لعملية التحول التي تشهدها البلاد. بعد أن أخفق في تحويل بطرسبورغ إلى عاصمة عالمية للمصارف، أو منطقة اقتصادية مزدهرة بالحرية، اعتقد سوبتشاك أن استضافة هذا الحدث الرياضي الدولي ستكون في حد ذاتها جاذبة للمستثمرين الذين كانوا يبتعدون أكثر. وفوق ذلك فقد جُهّزت المدينة بطريقة سيئة، تنقصها السيولة النقدية، والفنادق، والمرافق الرياضية. وبعد استنزاف موازنة إصلاح مترو الأنفاق في المدينة، توسل إلى موسكو لتحويل له مزيداً من المال، وأسرع مكتب سوبتشاك لتجديد الملاعب، وتزفيت الطرق، وتلميع واجهات عديد من القصور والكنائس والآثار في المدينة. وفي الوقت الذي بدؤوا فيه، كانت الألعاب تعاني سوء التخطيط، والمشكلات اللوجستية، والعمل غير المطابق للمواصفات؛ فساحة التزلج على الجليد الداخلية- ألعاب تيرنر خلطت الألعاب الصيفية والشتوية- لم تتجح في تشكيل الجليد، وأُجِّل لليوم التالي؛ لأن رائحة ماء المسبح أصبحت كريهة؛ بسبب توقف إحدى المصافي، وانسحب بعض السباحين بعد أن أصبحت الماء ذات مسحة خضراء⁹، كما أن أسعار التذاكر لم تكن في متناول المواطنين الروس العاديين، وهو ما أدى إلى قلة الحضور لكثير من الفعاليات، حتى حين نفذت البطاقات.

استثمرت المدينة والدولة 70 مليون دولار في المباريات، وبالنسبة إلى معظم السكان فإن النفقات التي دفعت كانت أكثر بقليل مما يُدفع لقرية بوتيمكين، المثيرة للإعجاب لكنها في الحقيقة واجهة لإخفاء الخراب المحزن في المدينة.

بدا أن طموحات سوبتشاك بلا قيود، وعدَّ الألعاب تجربة أولية (بروفة) لاستضافة المدينة دورة الألعاب الأولمبية صيف عام 2004م. في روسيا الجديدة- كما هو الحال في الاتحاد السوفييتي- أصبحت الرغبة في عقد دورة الألعاب الأولمبية هاجسًا يتناسب طرديًا مع التوق إلى اعتراف دولي، وإلى الشرعية في الداخل والخارج. وكانت مقاطعة دورة الألعاب الأولمبية في صيف عام 1980م قد تركت مرارة لن تنسى إلا عندما يستطيع القائد العظيم للأمة أن يستضيف الأولمبياد مرة أخرى، وسوبتشاك لن يكون هذا الزعيم، ولم يعد حتى عمدة عندما اختارت اللجنة الأولمبية الدولية أثينا في عام 1997م لتكون المدينة المضيفة لعام 2004م، بعد أن أخفقت دعوة سانت بطرسبورغ، التي أعدت على عجل بمساعدة بوتين، وقبل أن تصل إلى المرحلة النهائية من الدراسة. كانت غطرسة سوبتشاك قد أعمته عن أهم ميزة أساسية للديموقراطية، وهي التي رُوِّج لها بكل ما يملك من فصاحة: الناس لديهم تصويت. في عام 1996م أعيد انتخاب سوبتشاك، وكذلك بوتين، وجاءت النتيجة خيانة شخصية عميقة.

كان سوبتشاك يعتقد أن حملة إعادة انتخابه ستكون بسيطة: سيُذكَر الناخبين بقيادته البطولية خلال أزمات عام 1991م وعام 1993م، وسيذكروهم أيضًا بألعاب النيات الحسنة، ودعوته لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية لعام 2004م، وبالشركات الجديدة، والمصارف، والاستثمارات الأجنبية، واجتماعاته الخاصة مع الزعماء الأجانب، ومن ذلك لقاءه بالرئيس بيل كلينتون في ذروة حملته. أعلن سوبتشاك نفسه ديموقراطيًا ورجل دولة وقف بوجه الانتقاميين الذين أرادوا أن يعيدوا بطرسبورغ إلى لينينجراد، وفي الواقع كان الشيوعيون أقل من يقلقونه، فانتخابه لم يكن اختبارًا للأيديولوجيات المتنافسة، بل استفاء على منصب العمدة، ولم يكن يدري أن الخطر الأكبر يأتي من الداخل.

تزامنًا مع الانتخابات الرئاسية الوطنية، حددت الجمعية التشريعية في المدينة موعد الانتخابات في 16 يونيو/حزيران، وغيّرت اسم رئيس البلدية إلى محافظ، كما كان عندما كان زعيم المدينة يعمل لدى سعادة القياصرة، في حين أظهرت ملصقات حملة سوبتشاك

صورته وهو يجلس وراء مكتب، مع شعار بسيط: (من عمدة إلى محافظ)، كما لو أنه انتقال لا مفر منه، وكان يعتقد أن الملقق مشوّق؛ لكن «للأسف مقاراً حملتي كانت أقل فعالية وكفاءة»¹⁰. أصبح اليوم سوبتشاك أقل ثقة بنائبه السياسي، وتركه لإدارة شؤون المدينة، ولكن لمس بوتين أيضاً أن غرائز سوبتشاك السياسية، وقدرته الخطابية، لن تكون كافية لضمان الفوز. في الانتخابات البرلمانية الوطنية التي جرت في ديسمبر/ كانون الأول عام 1995م، كان الحزب الذي يدعمه سوبتشاك ضعيفاً، وحتى في بطرسبورغ أيضاً، ومن ناحية أخرى، كان سوبتشاك يقلل من أهمية فقدان الدعم له في موسكو، وكان يُنظر إلى طموحاته السياسية من قبل أولئك الذين يتآمرون لإبقاء بوريس يلتسين في السلطة رئيساً، على أنها تهديد، فقد بدأت تلوح بالأفق الانتخابات الرئاسية لعام 1996م.

بتوجيه من رئيس الأمن لدى يلتسين الذي عرف بقوة تأثيره، بدأ المدعي العام الروسي يوري سكوراتوف، التحقيق في شؤون سوبتشاك في نهاية عام 1995م؛ بهدف كبح طموحاته السياسية على ما يبدو؛ وكان ذلك قلباً لحظوظه، وفيه من المفاجأة والسرعة كما فعل ستالين مع أعضاء الحزب غير المرغوب فيهم، وأدى من ثم إلى تمرغ صورة سوبتشاك.

شكل سكوراتوف لجنة تحقيق سرعان ما بدأت تسرب تفاصيل مساوماتها- المعروفة بالروسية بالكومبرومات- حول خصخصة غامضة للشقق من قبل شركة تسمى (النهضة)، ومن ضمنها تلك التي ذهبت إلى بوتين ونواب آخرين. رأى بوتين أن التحقيق استخداماً فقط لسلطة الادعاء العام ضد رجل قدم الخدمة له، وقد تركته التجربة متعطشاً للانتقام.

قال بوتين مذكراً سوبتشاك: «أنت تعرف أنك في ملعب مختلف تماماً»، وأضاف: «أنت بحاجة إلى متخصصين»¹¹، فوافق سوبتشاك وتوجّه إلى ألكسندر يوريف، أستاذ العلوم السياسية في جامعة سان بطرسبورغ الحكومية، الذي حذره من أن إنجازاته، مهما عظمت، لم تعد تلقى صدًى عند الناخبين الذين أصيبوا بالضجر وبخيبة أمل من الجريمة والفوضى التي شغلت المدينة¹².

في يناير/كانون الثاني، وبعد أيام قليلة من موافقته على العمل بالحملة، سمع يوريف طرقات على باب شقته، فلما نظر إلى الخارج كانت هناك شابة جميلة، فظن أنها طالبة تريد أن تسلم وظيفتها، وما إن فتح الباب حتى قذفه رجل مقنع بقارورة من الحمض على وجهه، وعندما ترنح يوريف متراجماً إلى الخلف، أشهر الرجل مسدساً وأطلق عليه رصاصة أخطأته. وعندما زار سوبتشاك يوريف في المستشفى، وجد رأسه مغطى كاملاً بضمادات بيضاء. لم تستطع الشرطة الإمساك بالمهاجمين، أو تتبين الدافع وراء ذلك، ولكن شكَّ سوبتشاك أن المحاولة جزء من مؤامرة مكشوفة ترمي إلى إقصائه عن منصبه¹³.

الهجوم زاد من توتر بوتين كثيرًا، فبدأ يحمل مسدسًا هوائيًا، وعندما شاهده سيرجي رولدغن، الصديق القديم له، حين زاره في بيته الريفي في بداية الحملة، سأله: «هل تعتقد أن المسدس الهوائية سيوفر لك الحماية؟»، أجابه: «لن يحميني، لكنه يجعلني أشعر بمزيد من الهدوء»¹⁴.

تأهل أربعة عشر مرشحًا ينافسون سوبتشاك، وكان من بينهم أعداء ألداء له: نائب رئيس البلدية، فياتشيسلاف ششيرباكوف، الذي لا يزال يحاكم بعد فصله من جرّاء أحداث 1993م؛ ويوري شوتوف، المساعد السابق الذي جُردَ من مهامه بصفته كاتبًا لسيرة سوبتشاك، وألكسندر بلياييف، الرئيس السابق لمجلس المدينة الذي حله سوبتشاك، وإضافة إليهم كان يوري بولديريف، الرجل الذي شعر سوبتشاك بالقلق الأكبر منه؛ فهو ليبرالي بارز، شغل منصب رئيس هيئة التدقيق في موسكو، وهو من قاد التحقيق في اتهامات الفساد الأولى التي وجهت ضد بوتين عام 1992م، وقد حققت له سمعة بأنه محقق صادق في زمن الإجرام المذهل¹⁵.

كان سوبتشاك قد خضع للتحقيق سابقًا، وانتخاب بولديريف قد تزيد من المشكلات القانونية التي يواجهها، وربما تلاحق بوتين أيضًا، ومن ثم حاول سوبتشاك استخدام مناورات المحامين للتلاعب في السباق لمصلحته الخاصة. وفي مارس/آذار، عدل قانون

الانتخابات ليشمل شرط الإقامة، وبذلك فقد يستبعد بولديريف، وهو مواطن من المدينة، على أساس أنه كان يعيش ويعمل في موسكو، وقد كانت مكيدة يائسة وغير ديموقراطية خاضها بولديريف بنجاح في المحكمة.

كما أن المناورة اللاحقة لسويتشاك أثبتت عواقبها الخطيرة، فعلى الرغم من أن موعد الانتخابات كان مقرراً أصلاً في شهر يونيو/حزيران، فإن سويتشاك غيّر ذلك، وادعى أنه فعل ذلك بإصرار من يلتسين، الذي كان أصدر مرسوماً يقضي بأن أي انتخابات أخرى باستثناء سباق العمدة في موسكو يجب ألا يعقد في نفس يوم الانتخابات الرئاسية¹⁶، وقد اقترح في البداية تأجيل الانتخابات حتى شهر ديسمبر/كانون الأول، إلا أن خصومه استكروا هذا بشدة؛ لأنه محاولة واضحة لتمديد ولايته. وبالمقابل أرسل بوتين إلى الجمعية التشريعية في مارس/آذار لإقناع النواب، وبالتهديد بالانتقام، وتوفير فرص العمل، تمكن بوتين في نهاية المطاف، وحسب القانون، من إجراء الانتخابات في 19 مايو/أيار، ولكن فقط بعد تأمين النصاب القانوني الذي يشك بتأمينه¹⁷. فبدأ منافسو سويتشاك بالاحتجاج؛ ليس لأن إجراء انتخابات منفصلة يضيع موارد المدينة فقط، وإنما لأن هذه الخطوة تضيق الوقت عليهم في التواصل مع الناخبين، كما أن شبكات التلفاز التي يسيطر عليها مكتب سويتشاك لم تقدم أي مساعدة، فقد ركزت اهتمامها كثيراً على سويتشاك، في حين كانت تخصص ضمن برنامج خمس عشرة دقيقة فقط لكل خصم من خصومه على الهواء.

وكانت الأخطار التي لم يأخذها سويتشاك وبوتين بالحسبان هي أن إجراء الانتخابات قبل الانتخابات الرئاسية سيخفض بكل تأكيد نسبة الإقبال، وهذا سيضر بفرصة نجاحه، كما سبق أن حذرهِ يوريف.

بات القلق يساور سويتشاك، وكان يتوقع أن أعداءه في موسكو يتآمرون عليه، فسافر إلى موسكو في مارس/آذار يطلب من يلتسين الدعم، ولكنه فوجئ بأن صداقتهما قد تبددت. وفي تلك السنة كانت احتمالات إعادة انتخاب يلتسين نفسه في غاية السوء، وقد خشي

مساعدوه من المنافسات من كل الجهات، الحقيقي منها والوهمي، ويبدو أن أحد نواب رئيس وزراء يلتسين، أوليغ سوسكوفيتس، أبلغه أن سوبتشاك أعرب، خلال لقائه مع المستشار الألماني هيلموت كول، عن رغبته في أن يُستبدل بيلتسين فيكتور تشيرنوميردين¹⁸.

لم يكن جنون العظمة لدى سوبتشاك في غير محله؛ فعقب أيام من اجتماع سوبتشاك في الكرملين، غدت المكائد السياسية ضده واضحة، إذ كان لدى سوسكوفيتس، ورئيس الأمن القوي لدى يلتسين الفريق ألكسندر كورزهاكوف، مرشحهما الخاص لينافس سوبتشاك في بطرسبورغ، ولم يكن أحد المنافسين الكثر في السباق، بل كان فلاديمير ياكوفليف؛ نائب سوبتشاك نفسه، الذي كانا يُعدانه سرًا منذ شهور، حتى إن النيابة العامة زادت من وتيرة تحقيقاتها مع سوبتشاك وموظفيه.

وفي يوم 27 مارس/آذار، أعلن ياكوفليف على نحو مفاجئ دخوله في الحملة الانتخابية ضد رئيسه، وكان حينها في الثانية والخمسين، أصغر من رئيسه سوبتشاك بسبع سنوات، وهو مهندس بناء، ملتزم في الحزب السابق، أسهم في الانتقال إلى الديمقراطية الجديدة، مثل فلاديمير بوتين، بتأثير من سوبتشاك، وظل شيوعياً مخلصاً للحزب حتى حظره عام 1991م، على الرغم من فصله عام 1982م من اللجنة التنفيذية الإقليمية؛ بسبب استغلال منصبه لشراء سيارة شخصية له¹⁹، وكان يعمل بصفة كبير المهندسين في شركة إسكان عندما جاء به سوبتشاك للعمل معه في أكتوبر/تشرين الأول 1993م، وبعد عام انضم بوتين وألكسي كودرين لمنصب نائب العمدة الأول.

لم يكن لياكوفليف حضور جماهيري أكثر من بوتين، لكنه كان أكثر طموحاً وأقل ولاءً، قبل بدعم كورزهاكوف وسوسكوفيتس الذين وعدا به، للإطاحة برئيسه. الإعلان كان صادماً لسوبتشاك، حتى إنه فصل على الفور ياكوفليف، وقال حينها: لو كان ياكوفليف رجلاً حقاً لاستقال قبل أن يعلن المنافسة. غضب بوتين أيضاً من ترشيح ياكوفليف، وسماه علناً بيهودا (الذي خان السيد المسيح)²⁰، وعمم من خلال البريد الإلكتروني بضرورة أن يوقع جميع

الموظفين لدى سوبتشاك على أنه في حال خسر سوبتشاك الانتخابات فسيستقيلون جميعاً احتجاجاً على ذلك.

بمرارة المعرفة المتأخرة، وصف سوبتشاك إنجازات ياكوفليف بالمتواضعة، ووصفه بأنه لم يكن ذكياً «كما الناس الأكثر تعليماً وثقافة ومهارة» في فريقه، مثل بوتين، وقد فضحه الموظفون حين لقبوه بـ(السباك)²¹، وهو ما يناقض رواية بوتين بأنه من (ستاسي).

سوبتشاك تجاهل ياكوفليف ومنافسيه الآخرين، والتفت إلى تنفيذ مهامه الرسمية، كما لو أن هذا كاف لإثبات جدارته الانتخابية، وأولت حملته الانتخابية اهتماماً كبيراً بيلتسين قبل الانتخابات الرئاسية، على أمل أن يثبت ولاءه ويعيد التحالف السياسي الذي كان بينهما ذات يوم. وفي التاسع عشر من أبريل/نيسان وصل بيل كلينتون إلى بطرسبورغ في طريقه لحضور اجتماعات في موسكو، وكان الأمريكيون يأملون في الوقوف إلى جانب يلتسين للتغلب على الحزب الشيوعي المتنامي. التقاه سوبتشاك في المطار واتجهوا بسيارة ليموزين لتسارسكوي سيلو حيث المبنى الإمبراطوري جنوب المدينة. قد يكون دار في خلدته أن تكون المحادثات الخاصة وسيلة للوصول ثانية إلى يلتسين، فقد خرج سوبتشاك عن المسار المتوقع لشرح كيف يمكن أن ينتصر يلتسين على منافسه الرئيسي، الشيوعي غينادي زغانوف.

كان سوبتشاك يرافق كلينتون مثل ظلّه في كل مكان، متطلعاً إلى أن يظهر على شاشات التلفاز كرجل برفقة قائد على مستوى العالم، ولذلك فقد اشتكى كلينتون أنه خلال زيارته «وُضع في شرنقة لعينة»، فاللقاء الذي كان مقرراً للقاء طلاب في الأرميتاج ألغي، وألغي كذلك طلبه بوقوف الموكب لمصافحة الناس في الشارع. واتهم مساعد كلينتون، ستروب تالبوت، المسؤولين بأنهم أفرطوا في الإشراف على تفاصيل الزيارة، فعلق فلاديمير بوتين في ذلك الوقت قائلاً: «إن هذا الاسم لا يعني لنا شيئاً»²².

ياكوفليف ليس سياسياً محنكاً كما كان سوبتشاك، لكنه كان شخصية جذابة بطريقته الخاصة، وأكثر انسجاماً مع رغبات الناخبين، طويل القامة، رقيقاً بوجه ملائكي، عظام

خديه عرضة للانقسام لترسم ابتسامة أبله. لم يقدم أي بديل أيديولوجي حقيقي- فليس لديه نية لاستعادة الشقق والمصانع المخصصة على سبيل المثال- لكنه وعد بالعمل لإصلاح مشكلات كثيرة في المدينة: صنابير المياه غير الصالحة للشرب، والشوارع المليئة بالحفر، وانهيار الأنفاق، ووعد بفرص العمل، ولكن تجنب دورة الألعاب الأولمبية.

قلَّ سويتشاك من شأن وعود الحملة الانتخابية التي أطلقها منافسه، واصفًا إياها «بأوهام خلافة لجمهور ساذج»، لكنه كان استخفافاً بمطالب مساعديه؛ فالمدينة التي لا يزال الناس فيها يعيشون في شقق مشتركة، والخدمات الأساسية فيها متهالكة، وسيارات الإسعاف هزيلة، والماء مشوب بالجيارديا، ومياه الصرف الصحي تتدفق من دون معالجة في بحر البلطيق، المدينة التي لم تستطع خلال شهر في سبتمبر/أيلول 1995م أن تدفئ مستشفياتها²³، قد يكون (السباك) فقط ما يريده الناخبون.

مع ضخ السيولة النقدية بدعم من أنصاره في موسكو، استعان ياكوفليف بمستشاريه المهنيين في الحملة، فساعدوه على إدارة حملة أكثر تنظيمًا وفاعلية؛ ومن ثم فصناديق البريد اليوم تمتلئ بالمنشورات، والإعلانات تبث من خلال موجات الأثير، تحمل جميعها رسالة بسيطة مؤداها استعادة الحكم والخدمات الأساسية²⁴.

تلقى ياكوفليف الدعم السياسي أيضًا من حليف قوي جديد، هو يوري لوجكوف، محافظ موسكو ذي الشعبية العالية، والرأس الأملع، والصدر البرميلي. ياكوفليف كيّف نفسه، كما كيّف لوجكوف نفسه مع بطرسبورغ. وقد اقترح لوجكوف علنًا مشاريع جديدة يمكن أن تجعل كل المدن تزدهر، خلافاً لحملة سويتشاك، التي تفتقر إلى المال. وإذا لم يكن لبوتين سوى الدور القليل في هذا الموضوع، فقد دخل اليوم الصراع طالبًا التبرعات من رجال الأعمال الذين عمل معهم طوال السنوات الخمس الماضية، وهو ما نظر إليه على أنه استجداء مكشوف الأمر الذي قوبل بأشمئزاز واضح²⁵. عندما دعا مجموعة منهم لجمع التبرعات، رفضوا المساعدة، مع أنهم هم أنفسهم الذين- في رأيه- استفادوا من عمليات الخصخصة

والاستثمارات التي جعلها سوبتشاك ممكنة. أحد الأثقياء المحليين كان وافر الحظ، زاد 2000 دولار عن كل رجل من رجال الأعمال الصغار الذين قالوا إن هذا المبلغ أفضل من رفض التبرع لـ (مؤسسة تدعم رئيس البلدية)²⁶.

هيمنة سوبتشاك على السياسة في المدينة منذ عام 1989م، والكاريزما والمكانة التي يتمتع بها، لم تعد تحميه من الهجمات الشخصية المهلكة؛ فقد قال ألكسندر بلياييف، رئيس المجلس السابق، في مؤتمر صحفي، إن سوبتشاك وبوتين لديهما ممتلكات على ساحل الأطلسي في فرنسا، وإن سوبتشاك اعتقل عام 1993م في مطار هيثرو في لندن وكان يحمل حقيبة بها مليون دولار، وتعهد إن أصبح حاكمًا أن «يودع سوبتشاك السجن»²⁷. وقد رد بوتين على الاتهامات الموجهة ضده، برفع دعوى قضائية تتهم بلياييف بالافتراء، لكنه أخطأ في المحكمة المختصة في ذلك فسخرت منه الصحافة بقسوة: «إن رجل المخابرات يجب أن يعرف عنوان المدعي عليه»، هذا ما كتبه إحدى الصحف في عنوان لها، ولما حاول الدفاع عن نفسه بأنه لا يعلم حتى أين يقع ساحل المحيط الأطلسي في فرنسا، زاد من سخرية الجمهور²⁸.

كانت الحملة شرسة، وكانت قدرة، وكانت أيضًا أكثر أو أقل حرية ونزاهة، وفي روسيا يمكن أن تكون الانتخابات في ذلك الوقت شائكة، لكنهم كانوا ديموقراطيين. عند فرز الأصوات في ليلة 19 مايو/أيار، جاء سوبتشاك على رأس قائمة من ثلاثة عشر مرشحًا آخرين، لكنه نال 28 في المئة من الأصوات مقابل 21 في المئة فقط لياكوفليف، وبهذا لم يحقق أي منهما 50 بالمئة، فتقرر إجراء جولة إعادة في 2 يونيو/حزيران.

كان سوبتشاك يأمل بالفوز، لكن الذعر يجتاح اليوم فريق حملته وموظفيه، وبات جليًا أن بوتين «أصبح أكثر عصبية»، وتدخل في الحملة مباشرة، و«لكن في ذلك الوقت أصبح الوضع ميئوسًا منه»²⁹؛ فقد أيد خصوم سوبتشاك المهزومون جميعهم ياكوفليف، والأسوأ من ذلك أن التحقيقات التي تدور حول مالية سوبتشاك، والشقق التي وزعها، تسربت إلى

الجمهور، وأكدها ليونيد بروشكين، أحد المحققين المحليين، وقد طبعت أخبار اتهاماته على النشرات، ووزعها فريق حملة ياكوفليف في جميع أنحاء المدينة، دفعة واحدة، بإسقاطها من طائرة عمودية، فكتب بوتين رسالة سخط إلى يلتسين، متهمًا تشيرنوميردين، والنائب العام يوري سكوراتوف، بانخراطهم المباشر في حملة (الاضطهاد والافتراء).

ندد بروشكين بالأمر بقوة، وصرح لإحدى الصحف الموالية للشيوعية قائلًا: «هناك انتهاك لكل المعايير الإجرائية»، وهكذا انتشرت (مادة لا أساس لها). طالب بوتين بـ«إجراءات حاسمة لوضع حد لاستخدام سلطات تمكين القانون لأغراض سياسية»³⁰.

كان الأسبوعان الأخيران من الانتخابات في غاية التوتر، وفق ما كشفته كلتا الحملتين³¹؛ كان ياكوفليف قلقًا على سلامته، وكانت ترافقه وهو يجوب بسيارته جميع أنحاء المدينة سيارتان رياضيتان متعددتا الاستخدامات، وكاملة بحراس مدججين بالبنادق ويرتدون الملابس السوداء. وواجه بوتين بشائعات تقول إن سوبتشاك أمر باغتياله، وأجاب بوتين: «ما أنت؟ هل أنت مجنون؟ الأفضل أن تنظر إلى نفسك في المرآة»³².

كان الأمل الأخير لسوبتشاك المناظرة التلفازية في الأسبوع الأخير قبل التصويت، ولكن هناك خانته بلاغته؛ وبدا ياكوفليف مرتاحًا، إذ خلع سترته، وتحدث بوضوح وقوة، في حين جلس سوبتشاك محدودبًا، متلعثمًا يجاهد في نطق الكلمات، وكان أصيب بالحمى قبل المناظرة، وحين بدأ - كما روى ذلك لاحقًا - شعر بثقل في لسانه، وتشنجات في حنجرته، وعندما سئل عن مصدر البيت الريفي المشبوه، لم يتمكن من الإجابة، وذكر أنه لم يعلم بالحقيقة إلا في وقت لاحق. أحضر فريق حملة ياكوفليف طبيبًا نفسيًا إلى الجمهور! «استشرت الخبراء، وأكدوا لي أن تأثير المنوم قوي، ويسبب غالبًا تشنجات في الحنجرة، وثقلًا في اللسان، وصداعًا وارتفاعًا حادًا في درجة الحرارة؛ بسبب مقاومة الجسم لتأثير الطاقة الغريبة»³³. سوبتشاك لم يخسر الانتخابات فحسب، بل كاد يفقد عقله أيضًا.

في النهاية فاز ياكوفليف بـ 47.5 في المئة من الأصوات، وحاز سويتشاك 45.8 في المئة، وكان أقل من هزيمة مشرفة، ومع ذلك لم يعرف التواضع، فقد كان يقارن مصيره بوينستون تشرشل؛ «منقذ البلاد، ورمز الانتصار»، الذي أطيح به في صناديق الاقتراع في عام 1945م³⁴. ورفض بفضاظة حضور افتتاح حفل فوز ياكوفليف، الذي عقد في سمولني بعد عشرة أيام، ولكنه بهذا فعل - على الرغم مما يحمله من نزعات استبدادية - ما لم يفعله أي مسؤول آخر منتخب بهذه الأهمية في روسيا؛ إذ لم يعترض على النتائج، أو غير ذلك في محاولة لمنع انتصار ياكوفليف، بل قبل بالهزيمة وتتحى.

«لم أكن يوماً مدمناً سلطه، مثل لينين أو يلتسين، لكن لو أنني خسرت الانتخابات أمام منافس جدير، لكانت الهزيمة أسهل علي»، هذا ما كتبه في مذكراته بعنوان دزينة من السكاكين في الظهر، وأضاف: «ما يشغلني في هذه الحالة هو أنني خسرت أمام ياكوفليف؛ الرجل الرمادي والبدائي بوضوح. قرّعت نفسي لأنني أخفقت في رؤية سرقة من الحكومة لحساب المكاتب الهندسية الخاصة، لكن المؤلم أكثر أن الردة أو الخيانة المباشرة كانت من جانب بعض أولئك الذين أحاطوا بي»³⁵، وأشار إلى استثناء واحد: فلاديمير بوتين.

خسارة سويتشاك غير المتوقعة تركت بوتين من غير وظيفة، ومن غير رعاية، ومن غير هدف، فبدأ كما لو أنه عاد من ألمانيا الشرقية مرة أخرى. وعلى الرغم من الرسالة التي وقعها هو وغيره، لم يستقل فوراً، مع أنه يعمل اليوم لدى المحافظ الجديد الذي أسماه يهودا. أقنع ياكوفليف مساعدي سويتشاك الآخرين بالبقاء في وظائفهم، ومن ضمنهم ديمتري كوزاك، الصديق والمدعي العام السابق، وميخائيل مانيفتش، الخبير الاقتصادي الشاب، الذي أصبح نائباً للحاكم.

بقي كوزاك مقرباً من بوتين لسنوات، ولكن مانيفتش اغتيل بعد عام، إذ أطلق قناص ثماني رصاصات على سيارته وهي تتعطف إلى شارع نيفسكي بروسبكت، وظل بوتين في مكتبه في سمولني من خلال إعادة انتخاب يلتسين غير المتوقعة في صيف عام 1996م، لكن طُلب منه في وقت لاحق «ترك منصبه سريعاً قبل نهاية يونيو/حزيران»³⁶. لم ينس المحافظ

الجديد برودة بوتين وتعليقاته خلال الحملة الانتخابية، وحين أخبره مساعده أن بوتين ما زال ينتظر سماع كلمة واحدة عن مصيره، احمرَّ وجهه ياكوفليف وقال: «أنا لا أريد أن أسمع مزيداً عن ذلك الأحمق»³⁷.

حاول سوبتشاك مساعدة نائبه المخلص في إيجاد وظيفة جديدة، حتى إنه استجدى يفجينى بريماكوف، رئيس الجاسوسية القديم الذي رَأَس فرع المخابرات الخارجية في الـ(كي جي بي) خلفاً له، إلى أن عُيِّن وزيراً لخارجية يلتسين في يناير/ كانون الثاني عام 1996م. قال الرئيس السابق لبوتين مخاطباً إياه: «ستكون سفيراً»، من السخرية التفكير في الموضوع، ويعرف بوتين ذلك مع أنه لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن يخبر سوبتشاك. ووعده آخرون بوجود حاجة إليه في مكان آخر، لكن لا شيء يتحقق على الفور.

في يوليو/تموز انتقل مع عائلته إلى المنزل الريفي الذي بناه على شاطئ بحيرة كوموسومولسكوي، التي تبعد سبعين ميلاً إلى الشمال من المدينة على برزخ الكريلية، وكانت جزءاً من فنلندا إلى أن دمجها الاتحاد السوفييتي بعد الحرب الوطنية العظمى. كانت قرية صغيرة في مكان قريب، هناك انضم بوتين لكوكبة من رجال الأعمال الذين عرفهم منذ عام 1991م، وأسسوا ما يشبه المجتمع المغلق على شاطئ البحيرة، في وقت لاحق من ذلك العام، وأطلق عليه أوزيرو، أو البحيرة. كان من المساهمين: فلاديمير يانكونين، ويوري كوفالتشوك، والأخوان فورسينكو؛ أندريه وسيرجي، وقد التقوا جميعاً من خلال عملهم في معهد أيوفي للتقانة الجسدية الذي يحظى بسمعة عالية في بطرسبورغ، وأسسوا مشروعاً يحول عملهم العلمي إلى منتجات قابلة للتطبيق تجارياً، وذلك بمساعدة لجنة بوتين للشؤون الاقتصادية الخارجية. أصبح يانكونين وكوفالتشوك مساهمين في مؤسسة مالية، ومصرف روسيا الذي أنشئ عام 1990م لمسك حسابات الحزب الشيوعي، وحسابات الـ(كي جي بي) أيضاً، كما أشيع على نطاق واسع. وقد أصبح المصرف قوقعة حين تولاه كوفالتشوك وزملاؤه، ولم يفلس إلا لأن بوتين وجه حسابات الحكومة إليه. وكان من بين المساهمين التنفيذيين في مصرف

روسيا فيكتور ميانتشين، الذي انضم كذلك إلى المجتمع الريفي، كما فعل نيكولاي شمالوف من قبله، الذي كان أحد نواب بوتين في لجنة الشؤون الاقتصادية الخارجية، إلى أن أصبح ممثلًا للشركة الألمانية المصنعة سيمنز في شمال شرقي روسيا.

كان بوتين المسؤول الحكومي الوحيد بين رجال الأعمال الجدد، ولم يكن واضحًا تمامًا كيف كان يغطي راتبه الضئيل كل هذه المصاريف، مع أن الدلائل تشير إلى أنه كان يغطي مصاريفه من اتفاق المنتجين العشرين (توينتيث ترست)؛ المنظمة التي سجلتها لجنة بوتين في عام 1992م³⁸، وشملت نشاطاتها عددًا من عقود المدينة التي تحمل توقيع بوتين، وكانت من بين الشركات التي لفتت انتباه المحققين الذين أوفدوا من موسكو للنظر في إدارة سويتشاك.

بني منزل بوتين على أرض تعود ملكيتها له من الأجر الأحمر، مزينًا بالخشب في داخله، وكان من طابقين، مع إطلالة واسعة على البحيرة، وكانت مساحته الكاملة فقط 1600 قدم مربعة، كان متواضعًا نسبيًا، على شاطئ البحيرة لكن في غابة معزولة، وهو المكان الذي يمكن أن يفكر فيه في مستقبله الغامض فجأة.

لوفاز سويتشاك في الانتخابات لبقية بوتين بالتأكيد إلى جانبه، لكنه لم ينشئ علاقات مع سياسيين آخرين. فكّر بوتين أن يصبح محامياً، وتحدث مع شريك قديم له في الجودو، فاسيلي شيبستاكوف، ليصبح مدربًا في ناديه، فنصحه شيبستاكوف أن هذا بات دون مستواه اليوم، ولكن إذا لم يتحقق أي شيء آخر فبإمكانه القدوم³⁹، وكان ذلك سقوطًا مريعًا.

كان يستغرق مطولاً في التفكير، ورفض مناقشة مستقبله الغامض مع ليودميلا، وكلما غرق بالخوف، عرفت أنه من الأفضل تركه وحده. كان زوجها من أولئك الذين (لا يحبون الخسارة)، وقد أذافته الحملة طعمًا مريعًا للخطر الذي يكمن في الديمقراطية الحقيقية. تقول ليودميلا: «صحيح أنه لم يفصح عن ذلك، أو حتى يسمح به، لكنني فهمت كل شيء، وأحسست به، وشاهدت ذلك بنفسي»⁴⁰.

شهر أغسطس/آب هو شهر العطل في روسيا، وهو موسم الراحة في آخر الصيف، حين يقصد معظم الناس في البلاد بيوتهم الصيفية الخاصة بهم. بعد أن أخفق بوتين في إيجاد وظيفة جديدة سريعاً، كان عليه أن ينتظر حتى يستأنف الدوام الرسمي في نهاية شهر أغسطس/آب حتى يتمكن من البحث عن عمل مرة أخرى. في 12 أغسطس/آب، دعا بوتين سكرتيرته السابقة، مارينا ينتالتسييفا وزوجها وابنتهما لزيارة البيت الريفي. وفي المساء، نزل الرجال إلى البانيا (الحمام) في الطابق الأول، خلف الباب مباشرة، وكان بوتين يسميه «آثار وظيفتي السابقة»⁴¹، وحين كان راجعاً من مغطس التبريد في البحيرة رأى الدخان؛ كان السخان داخل الحمام قد أطلق شرارة، وسرعان ما انتشرت النار في المنزل، فخرجت كاتيا مسرعة من المطبخ، ووجد بوتين ابنته الكبيرة ماشا، ومارينا، في الطابق الثاني، وكلما ارتفعت ألسنة اللهب كانت تلتهم الدرج، وهو يحاول خفضها من الشرفة مستخدماً أوراقاً كما الحبل، ثم تذكر فجأة أن لديه حقيبة في غرفة نومها فيها نقوده، قرابة 5000 دولار، فراح يبحث عن الحقيبة على الرغم من انطفاء الأنوار وتصاعد الدخان الخانق في المنزل، ثم قفز من الشرفة ملتقاً بشرشف رقيق، وراح بعدها يراقب هو وعائلته وجيرانه كيف يحترق المنزل كأنه (شمعة)، ثم وصل رجال الإطفاء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء؛ لأن الشاحنة كانت بلا ماء، فصاح بوتين: «هناك بحيرة بكاملها!»، فرد عليه أحدهم: «هذا صحيح، لكن ليس لدينا خرطوم أيضاً»⁴².

تعجب فاسيلي شيسيتاكوف حين سمع نبأ الحريق، وانتشال حقيبة النقود، ولم يكن عجبه لأن بوتين لم يظهر عليه الثراء بأن يبني (قصرًا من الحجر)، وإنما لأنه أمضى خمس سنوات بصفته (الرجل الثاني) وثروته لا تزيد على 5000 دولار. هذا هو الفساد الذي افترضه الموالون لروسيا؛ أن بوتين قد سرق «أموالاً لا تحصى» ودون أن يخشى من التعرض للمساءلة⁴³.

حدد مفتشو الإطفاء أن البنائين لم يثبتوا سخان الحمام جيداً، وذلك ما تسبب في الحريق، لكن بوتين أجبرهم على بنائه كما كان من دون حمام، وعندما أزال العمال الحطام

وجدوا في الرماد صليب الألومنيوم الذي أعطته إياه والدته عندما سافر هو وسويتشاك إلى القدس قبل ثلاث سنوات، وكان قد خلعه حين كانوا في الحمام يستحمون، وحين تصاعدت النيران ارتبك ونسي الصليب، وكان يعدُّه إلهاماً من عند الرب، وادعى في وقت لاحق بأنه لم يخلعه قط⁴⁴.